الوثيقة ١٩٥٧٨

من أحمد طوسون الى والده محمد علي

حضرة صاحب الدولة ولي النعم أفندم

إن هذه السوانح التي وقعت والاعراض التي انتابت هذا العاجز والتي كانت غير مأمولة او متوقّعة لم تكن ناتجة عن شجاعة او غلبة ... سعود ، إلا أنه لما كانت محاربة ... سعود أضف اليها متانة وأحكام مضيق جديدة ، ذلك الموقع العسير الشديد الذي لم يحسب له حساب،من العوامل المؤثرة ، وبما أننـا لم نحزم أمرنا كما يجب وبحسن تدبير لمواجهة تلك المصاعب، وتوجّهنا ارتجالاً دون إمعان النظر في وجوه العمل فقد حدث ما ظهر من التخلف والتأخر ، وعدا ذلك فإن توجيه وإيحـاء حضرة واجب الوجود كان الغرض منه تنبيهنا للابقاء علينا وتحذيرنا من التورط وهذا كان واضحاً جلياً . وقد جاءت هـذه السوانح غير المأمولة أو المرتقبة مصداقاً إلى قوله تعالى الشريف : ﴿ وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم ﴾، وكان ذلك بدون شك أو ريب حافظاً لنا وبادرة خير بحقنا.

بعـد عرض هذه الشؤون نفيد بأننا لدى وصولنا إلى ينبع البحر أخذنا نستعرض مواقع القلعة والأبراج ونظرنا في طريقـة وصورة تعزيزها وتقويتها وتحصينها وتنظيم أمور العساكر وتوزيعها ، ثم بالنظر لقـلة الماء الزلال أرسلنا الرجال والحيوانات والوسائط النقلية إلى (مويلح) وبادرت بالإفـادة وبشرح

هذه القضايا وما يتعلق بشؤون العساكر بعريضتين مفصّلتين حررتها أنا عبدكم وقدّمتها في حينه.. وكان قد ورد من حضرة الشريف تحرير يفيد ما قرّر سعود أن يقدم عليه من تحركات، كما أعلمناه باتجاه العساكر ، ومقدارها عشرون ألفاً براً ، وخمسة آلاف بحراً بالقوارب ، وأنها ستصل إلى طرفنا ، وقد بعثنا بهذه التحريرات إلى مقام ولي النعم العالي مع (قدري) وفيها عرض لكافة ما تقدّم .

سيدي صاحب الدولة ولي النعم. لقد استشهد وتعطل من العساكر الإسلامية بنتيجة المحاربة التي جرت في مضيق جديدة أكثر من مائتين ، ولكنني أقسم بالله العظيم أن هذا العدد لم يبلغ الثلاثمائة . وقد علمنا من جواسيسنا الستة الذين وصلوا من مكة المكرمة والذين كانوا يتابعون مراقبة حركات الأعداء وفهمنا من تحرير حضرة الشريف الذي أتى به أحد رجاله ، وبه وصف المحاربة الجارية بيننا وبين الأعداء ، بأن جنود الأعداء لم يتمكنوا من الصمود بل عمدوا إلى الهزيمة والفرار مرتين ، وأن عبد الله بن سعود وحده هو الذي ثبت في المعركة مع فريق من الرجال بعث فيهم الحماس ، فلم يفروا بل ظلوا يحاربون، وأنه مات من جماعة « سعود » ستمائة وسبعون، كما مات من جماعة « عثمان مضايفي » ثلاثمائة وخمسة وثلاثون ، وقتل من جماعة « أبو نقطة » « وابن شكبان » مائتان وسبعة وثمانون ، ومات من جماعة « قحطان » اليمانيين نحو أربعمائة بالاضافة إلى سبعة وعشرين أميراً ، فيكون مجموع الذين قتلوا وأبيدوا وجرحوا يتجاوز الأربعة آلاف . وعدا عما ذكر يستفاد من تقرير الجواسيس أن الأعداء شهدوا بأعينهم ما لم يكونوا يتوقعونه من شدة وقوة جهاد عساكرنا ، وكانوا مندهشين للغاية من ذلك ويتحدثون فيما بينهم قائلين : « نحن لم نرَ أبداً عساكر مثل هؤلاء فهل هم من الجن أو العفاريت؟ »وكان الخوف واضح المعالم ظاهراً على وجوههم وملامحهم وفي حركاتهم ، وهذا ما أفاده بحق وعلى وجه الصحة جواسيسنا . وأنه من جهة اخرى ولو حدث مثل ذلك من بؤس في جموعنا وبين صفوفنا، فضلاً عن الحلات الأخرى فإنه بمنه تعالى وبفضل كرامة وشوكة حضرة ولي النعم العالم أفندينا السلطان المعظم الذي ندعو له ولصاحب الدولة ولي نعمتنا أفندينا بطول العمر

والإحسان من لدن العلي القدير إن شاء الله تعالى ، وبسطوة حضرة أفندينا وهمة حضرة ولي النعمة سيتم سحق الخارجي سعود وأتباعه ، والإنتقام منهم والأخذ بالثأر قريباً مما سنُسر له جميعاً إن شاء الله ، وهذا ما نؤمله ونرجوه من الحق سبحانه وتعالى ونتمناه من قدرة القادر الكبير .

لقد قبض سعود ... خلال هذه السنة المباركة في مكة المكرمة من حجاج المغرب ثلاثين ألف ريال إفرنسي ، وأنذر أولئك الحجاج عدا عن ذلك بأنهم إذا لم يتعهدوا بدفع خمسة وعشرين ألف ريال السنة القادمة ، وهو الذي حدده كمبلغ واجب الدفع ، فإنهم سوف لا يتمكنون من أداء فريضة الحج وسلم سعود ... المذكور إلى نقيب حجاج المغرب فضلاً عن ذلك رسالة إلى نجل سلطان المغرب يقول فيها إن القباب المغربية يجب أن تكون على شكل متناسب مع النموذج المعين وأن لا يظهر عليها أي شيء من المنهيّات .. وختم رسالته بنصائح من هذا النوع وأنهى حديثه بأخذه تعهداً بذلك ، ولما حضر أهل مكة نعتهم بالمشركين ولم يمكّنهم من القيام بأية حركة معاكسة له وشتمهم مهدداً بهجوم أتباعه الكُثر المرابطين في جدة على زعمه ، واتهمهم بالزندقة قائلاً إنه يجب عليهم أن يجدّدوا إيمانهم وإسلامهم فانكفأوا مرتدين . أما بما يتعلق بالمدينة المنورة التي احتلّها الوهابيون فإن سعوداً كان عيّن (حسن قلعي) بوظيفة « آغة القلعة » وأميراً فيها ولكنه عاد فعزله ونصب بدلاً عنه رجلا .... يدعى (عفيصان) أميراً على المدينة وآغا للقلعة فيها (أي حاكم القلعة) ، كما انه عيّن بدلاً عن أحمد الياسر أفندي : واحداً ... يدعى (أحمد الحنبلي) وهو الذي كان قبلاً يقيم بالدرعية ، وقال انه سيطلب أحمد الياسر أفندي إلى الدرعية . وكان سعود يردّد القول : (عساكر مصر ! عساكر مصر كانوا يتبجّحون بذكرهم ، ويطرون شجاعتهم ، وقد رأينا عساكر مصر وجبنهم ...!) ، وكان سعود ... يكرر هذا المقال بحيث سمعه أهل مكة المكرمة ، كما أن أحد عساكر مصر الذي كان عند سعود ردّد هذا الكلام الذي إنما يدل على غرور وغلو والذي اعتبره أهل مكة موجباً

للتفاؤل بالخير . ولما لم يكن لهذا العاجز قدرة على إرسال فرق الخيالة مباشرة إلى ينبع البر (ينبع النخيل) على أي وجه ، فقد سُيِّرت إلى مويلح !. وكتب عقب ذلك ابن مضيان وابن جبارة تحريراً إلى سعود يقولان فيه إن فرق الخيالة المذكورة ذهبت إلى مصر وإن مجموعة كبيرة من عساكرنا أبحرت أيضاً إلى مصر وإنه لم يبق لدينا سوى ثلاثمائة أو أربعمائة نفر في ينبع البحر . وتبعاً لذلك فقد جمع سعود « غير المسعود » الجموع متأهباً لمهاجمتنا وأمر (أبا نقطة) وقحطان وجماعته وابن شكبان أن يلازموا حضرة الشريف وأن يرودوا حوله، واحتياطاً للأمر واستعداداً لدخول معركة كبيرة تمّ الاتفاق مع حضرة الشريف على تهيئة حملة تبحر براً قوامها جماعة من قادة عشائر عسير وغيرهم وخمسة آلاف من الجنود على أن ترسل براً وبحراً من جدة . وأننا ولو كنا على هذه الصورة وتبعاً لهذه الخطة أخلينا وسلّمنا ينبع ، إلا أننا حوّلنا وجهتنا إلى الجهة التي علمنا ان سعوداً قرّر أن يلاقينا فيها ، ولكي يكون موقفنا متصفاً بالمتانة تهيّأنا لملاقاتهم .. . وفي اليوم الحادي والعشرين من شهر ذي الحجة تحرّكنا من مكة المكرمة جادّين بالسير ولكننا لم نصادف أحداً ، ويظهر أن سعوداً لم يأتِ إلى الجديدة مارّاً بالطريق العامة السلطانية ، بل يغلب على الظن أنه قرر الاتجاه إلى الدرعية من الطريق الشرقية كما أن ابنه عبد الله ومعه رفيقه وعثمان مضايفي ساروا من جهة الطائف متجهين أيضاً وجهة سعود إلى وطنهم الأصلي. أما جماعة وعساكر عسير الذين أُمروا بالالتحاق بحضرة شريف مكة المكرمة للتوجه إلى طرفنا فقد أُرسلوا إلى جدة لإركابهم بالقوارب. وكان قبودان محمد (من لمنى) لاحظ أن سعوداً قد يتجه صوبهم فأخذ مدفعَيْن من مدافعنا مجهّزَيْن بالقذائف الكافية بالإضافة إلى إحدى سفن أفندينا التي وضع فيها مدفعان أيضاً علاوة على مدفعيْ محمد قبودان ومدفعان آخران أُخرجا من القلعة ، وأُعدت كل تلك المهات والمعدات والذخائر لملاقاة سعود وجماعته . ولكي يكون الاستعداد لمهاجمتهم كاملاً اتخذت الترتيبات براً وبحراً وأصبح لدينا خمس سفن مجهزة وبتنا جميعاً بمعية حضرة صاحب السيادة الهاشمية بانتظار

المعركة . وقد بقي لدينــا من قوات الخيالة التي أرسلت إلى مويلح نحو ستين . واتجه ابن مضيان وابن جبارة نحو ينبع البر لتحريض عربان جهينة وحثهم على أن يكونوا معهم وأن يتبعوا الوهابيين ، وقد أساؤوا إلى كثير من العربان وعملوا على تكديرهم ، واتجه ابن مضيان بعـــد ذلك إلى موطنه (الصفراء والجديدة) ، وحضر ابن جبارة نهاراً إلى السويقة للإقامة فيها وظلّ نحو نصف ساعة من الليل ثم عاد إلى قريته وبقي فيها . هــذا ما بلغني من الأخبار ، وهي مؤكّدة وصحيحة .

إن ما بقي والحالة هــذه في خدمة عبدكم من الذين سبق تعيينهم هم : شيخ جزامي وهو شيخ حرب سابقـــاً وشيخ محمود من جهينة ومن ينبع الشريف منصور ووكيل حمدان ومع هؤلاء ثلاثون من الخيّالة وثلاثون من الهجّانة وستون تقريباً من المشاة ، وأُضيف إلى هـــذه المجموعة ستون خيالاً بمعية جوقدار آغا وحسين خزندار أُرسلوا جميعاً على دفعتين إلى ينبع البر وعادوا منها بعد أن تجوّلوا حولها متفقدين ومستطلعين . وقبل أن أقدّم عريضتي إلى مقامكم العالي بيوم واحد أرسلتهم جملـــةً فوصلوا نحو الصباح إلى السويقة ولما شرعوا فور وصولهم بالحرب تبيّن أن ابن جبارة كان فرّ قبل عشر ساعات ولم تتحمّل جماعته القتال فاستسلموا وهرب قسم منهم تاركين خمساً وعشرين من الهجن والجمـــال والسيوف والبواريد وعدداً من الأواني النحاسية وفرسيْن . وجُرح من أفرادنا سائس وواحد من الخيول ، وغنم جماعتنا أشياء اخرى كثيرة عادوا بها ، وفور وصولهم بعثوا إلى الخيالة الموجودين في (مويلح) بعـدد من الأكياس الجديدة والقرَب المليئة بالخبز والفول والشعير وغير ذلك أرسلت كلها براً كما أُركب ذووهم وحُمّلت أمتعتهم الثقيلة على الجمـــال وأُوصلت إلى البحر ووُضعت في القوارب لإرسالها بحراً . وأُوصي أولئك الخيالة بأن يظلوا مقيمين في مويلح إلى أن يصلهم أمركم العالي وحُذّروا تكراراً من العمل خلاف ذلك ، وألحقنـــا بهم ستمائة وخمسين قنطاراً من الخبز (البقسماط) وتسعمائة وستين اردباً من الشعير . وقد مضى على ذلك ثلاثون يوماً ولم يرد الينا أي خبر عن وصولهم وهذا ما جعلنا

في قلق وألم وبتنا غارقين في تفكير عميق وهواجس وأسف شديد . على أنه كان قد أعطي على الحساب إلى رهط الكشافة مائة وأربعة وخمسون كيساً من النقود.

إنني سأعرض على حضرة سيدي ولي النعم سريعاً بتحرير مفصّل أسلمه إلى عبدكم الباشجلويش (الرقيب الأول) أمين آغا مـا يرد إليّ من أخبار عن سفر حضرة الشريف المشار اليه خلال خمسة أيام براً وبحراً وتوجهه وعزيمته إلى هنـا أو عدمها وعن سائر تحركاته كيفما حصلت. وخاصة لإظهار عبوديتي واحترامي الفائقين جرى تحرير هذه العريضة ورفعها إلى ذاتكم البهية واجبة التعظيم ، وإن شاء الله ستحظى بشرف الوصول إلى ساحة صاحب الدولة ولي النعم . وعلى كلّ الأمر والإرادة لحضرة ذي المرحمة سيدي أفندم .

١٠ م سنة ٢٢٧ خاتم طوسون أحمد

حـــاشية :

ساعة الانتهاء من تحرير هــذه العريضة قدم رجل من المدينـة المنورة وأفاد بأن سعود ... لم يلتفت قط صوب المدينـــة وأنه مع كافة جماعته متوجّه شرقاً إلى الدرعية ، كما أنه فيما عدا مـا تقدّم بيانه لم يتعرض لحجاج المغرب وأن هؤلاء متوجهون إلى المدينة المنورة، ولكي يكون ذلك معلوماً لديكم اقتضى العرض والإشعار أفندم .

الوثيقة ١٩٥٧٨